حلم السّبيل*

مصطفى الكيلاني

يُقضّي الرّجل «م» ساعتيْن من المشي في كُلّ يوم. تنطلق الجولةُ من باب العمارة الخربة وتنتهي قُبالةَ أَحَدِ الأزقّة..

يوم الأحد. يكون السَّير فجراً. الاثنيْن صباحاً... السَّبت تنقضي الجولة بسهرة خمريّة في نزل فاخر.

يسأل الطّفل أباه «م»: لِمَ السّيرُ في زحمة الطّريق طَوالَ أيّام الأسبوع وفي أزمنة مُحَدَّدَة؟

يُطْرِق الأبُ مُفكّراً ويُطْبِقُ على المكان صمتٌ ثقيل. تبدأ الجولة في كلّ يوم بِحُلْمٍ مبتور: شيخ يلبس عمامة ويُمسك قلماً من القصب وأمامه دواة وَوَرَقة خُطّت عليها أَسْطُرٌ لا يتبيّن منها الحالمُ إلّا «قُدِّرَ لَهُ.. ما كان لِيَكون.. فَتَحَ.. فَتْحاً...»

محمّد الزّهروني اسمٌ ولقبٌ تَرَدَّدَا على لسان الرّجل «م» في صبيحة ليلة الحلم.. تذكّر حديثاً قديماً لجدّته عندما كان في بَدْء الشّباب ورد فيه ذكرُ الاسم واللّقب مع وصف موجَز لبعض صفات المُسمَّى.. لحيةٌ كثّةٌ بيضاء وعمامةٌ وعينان ضيّقتان ووجه مُشْرَبٌ بالحُمْرَة وبعض النتوء في الأسنان العُلْيا وشفة سُفلى غليظة.. كأنّه سمع جدّته في الحلم تقول: سِرْ في شارع باب البحر وستجد منزلَ الشّيخ في زقاقٍ فرعيّ هُناك..

مَرَّ على شِقَق العمارات والمنازل السّفليّة بَاباً بَاباً.. ترقّب خروجَ السكّان من بُيوتهم واحِداً واحِداً.. ولكنّ الأزمنة لم تتغيّر.. حيطان عالية ولافتات مكتوبة باللّغتيْن العربيّة والفرنسيّة ومعلّقات الإشهار وروائح البنزين والزّيت المقليّ وأطعمة منتصف النّهار وضجيج السيّارات والباعة تُخفي حقيقةً يُريدُ «م» أن يعلم تفاصيلها..

هذيان منتصف اللّيل. امرأةٌ سمراء فارعة الطّول، تلبس بنطلون «دجينز» وقميصاً أصفر، تُضانك الزّحمة، ثمّ تندفع إلى الرّصيف المُقابل ويتراءى وجهُها في شحوب ضوء الفانوس البلديّ قطعةً من الرّعب... عين بلا أشفار وأخرى نصف مُغْمَضة وجبين بارز وفم ضيّق وأنف دقيق الأرنبة. تُهرول المرأة بعيداً عنه ثمّ يبتلعها أحدُ الأزقّة...

المكان نفق. باب مخلوع. سقيفةُ بيتٍ هَرِم. غرفة مستطيلة يتوسّطها سرير عليه حبّات مَسْبحة مُتناثرة وسروال «دجينز» وملابس نساء داخليّة وخرقة مُلَطَّخة بالدّم والكُحْل. وفي الجدار المقابل صورةُ جسد أُنثويّ نصفُ عارٍ، الثّديُ الأيمن إلى الأعلى تُمْسِك بحَلْمَته أطراف السبّابة والوُسطى والإبهام، والشّعر مسدل على كتفين عاريَتَيْن، والرّأس مُنْقشع، وبين الفخذيْن قطعة قُماش حريريّ، والقدماء على أهبة الوقوف، وفي الجدار الآخر صورةٌ شمسيّة مُضَخَّمَة تكسّر زجاجها؛ كأنّها للشيخ الزّهروني وإنْ لم تظهر بوضوح: عمامتُهُ ولحيتهُ الكثّة البيضاء وعيناه الضّيّقتان الصّارمتان..

شَرْخٌ هناك في زجاج النّافذة المقابلة يقسم المشهد الخارجيّ إلى نصفيْن: بقع سحاب وأغصان شحرة عجوز وفراخ الحائط تمرّ في لَمْح البصر.

يعلم «م» أنّ الأيّام تمضي وعقارب السّاعة تدور، و«الزّهروني» يقضي آخر أيّامه في منزل مهجور داخل زقاق في مكانٍ غير معلوم يُسبّح بكلمات لا يفهمها إلّا الأتقياءُ.

الشّارع طويل. يوم الأحد فَجْراً. رَذاذٌ خفيف. ريحٌ شتويّة تكنس الأرض. دكاكين «اللّبلابي» و«الفطائر» والمقاهي خالية إلّا من سكارى ليلة السّبت.

يشقّ «م» طريقه في اتّجاه مُعاكس للرّيح الصّقيعيّة. يرمقها في زحمة اللّيل تهرول بقامتها الفارعة.. يتمنّى أن لا تلتفت إليه.. لا يتمالك نفسه، يندفع في ملاحقتها..

تلتفتُ إليه. عينٌ بلا أشفار والأخرى نصف مُغْمَضة وحبين ناتئ وفم ضيّق يبدو أنّه أدرد وذقن دقيق يعلوه احمرار... نوافذ الشّقق مُقْفَلَة، وخيوط الرّذاذ تُعابث فوانيسَ الشّارع الطّويل، وصَاحبةُ بنطلون «الدّجينز» تركض لاهثة كَقِطّةٍ مزبلةٍ يُداهمها خطرٌ ما.. تختفي في مُنعرج ثمّ ينحسر ظلامُ الفحر بِتُؤَدَة لِيُولد صباح ميّت.

يومُ الاثنيْن صباحٌ شتويّ يعجّ بِحَركات العمّال والمُوَظّفين والطّلبة وتلامذة الابتدائيّ والثّانويّ والحافلات والسيّارت.. المطر غزير. الحيطان المُبَلَّلَة ترتعش ألوانُها وأشكالها في زحمة مشهد رماديّ يمتدّ من أسفل الأرصفة وأوحال البالوعات الفائرة إلى الأعلى، حيث السّحبُ الدّاكنة وحيوطُ المطر نبالٌ ترشق جثّة النّهار الوليد.. أخبار الثّامنة حروب، دمار، الدّولار، القُبّعات الزّرقاء، الأطفال يُقتلون.. اعتاد «م» أن يتناول قهوته الصّباحيّة حِذْو المذياع ليستمع بانتباه إلى أخبار العالم. محاولة انقلاب فاشلة. الأمَمُ المتّحدة. مجلس الأمن. المساواة بين جميع الأمم. أطفال العراق. حقّ الملكيّة. الانتزاع واجب. المحكمة تقرّ حقّ التّسوُّل في الولايات المتّحدة الأمريكيّة. تهبّ على المدينة ريحٌ شتويّة باردة. الطّريق إلى «محمّد الزّهروني» مجهولة. مطر وأوحال وأزقّة ملتوية وواجهات بلّوريّة

(*) «حُلْم السّبيل»، عنوان قصّة كتبتُها منذ سبعة أعوام، تقريباً، وقد وَحَذْتُني مُضْطَرّاً إلى إعادة العنوان وإنْ كان هذا النّصّ معايِراً للنصّ القصصيّ الأوّل معايرة تامّة

وسيّارات ومارّة وأطفال المدارس والنّساء يتسارعون بلا وجهة. الشّارع طويل.

الثّلاثاء العاشرة صباحاً. رذاذٌ خفيف وهبّات نسيم شتويّ. يسير «م» من رصيف إلى رصيف. تمرّ أمامه بقامتها المتوسّطة امرأةٌ في الثّلاثين، تلبس معطفاً أسود... تلتفت إليه.. تبتسم. أنوثة قاتلة.. لا يتردّد.. يُبادرها بالتّحيّة تردّ عليه بابتسامة عريضة بيضاء في لون الحليب.. يدعوها إلى كأس حليب دافئ في مقهى صغير.. العينان سوداوان بأشفار طويلة والشّفتان قرمزيّتان والشّامة على الحنك الأيسر في الأسفل والأصابع مرمريّة، وباليد اليُسرى خاتم مُقبّب.. تنسكب الدّقائق كخيوط المطر خلف الزّجاج المُقابل.. يدعوها إلى جولة تحت المطر. لا تُمانع. تُمسك بيده في الشّارع الطّويل. يضغط على يدها. تبتسم. العينان سوداوان والشّفتان قرمزيّتان والرّقبة مرمريّة والدّفء ينزرع في حلقه وأحشائه وجعاً لذيذاً خافتاً كأنّه النّار تُشرف على الرّماد. يدعوها إلى شقّته. لا تُمانع. تبتسم. تجلس على حافّة السّرير. تسأله عن سبب إعراضه عن الزّواج. لا يُجيب. تبتسم.. يتدثّر بها.. تتدثّر به. الشّفاه. ثديان مرمريّان مُجنّحان يهمّان بالاندفاع خارج القفص. تتشابك الأيدي والسّيقان وترتفع الأنفاس في أصوات من التّشنّج كأنّها البكاء المُتقطّع.

الشّارع طويل. الأربعاء منتصف النّهار. بردٌ شتويّ يكاد يُدْمي الوجوه. السّماء شحيحة. لا مطر. أمام مقهى «الأحباب» يجلس طفلٌ في السّادسة وحذوه مطريّة صغيرة ومحفظة. يبكي أو يتظاهر بالبكاء. يفرك عينيه مرّاتٍ عديدة. يسأله «م» عن سبب البكاء. يجيب باقتضاب أنّه أضاع الطّريق إلى المدرسة.. في وجه الطّفل ملامحُ غريبة. عينان ضيّقتان سوداوان وابتسامة مُتخابثة كأنّها لِشيْخ في التّسعين وعلى الشّفتيْن أثر شُكُلاطة.. يدعوه «م» إلى البحث عن المدرسة. لا يُمانع. الشّارع مكتظّ بالمارّة وشريط السيّارات يمنع المترجّلين من العبور إلى الحافّة الأخرى رغم الإشارة الضّوئيّة الخضراء. الشّارع بَحْرٌ من الأجسام المتنقّلة والأصوات والرّوائح..

فكّر «م» في صاحبة السّروال «الدّجينز». قد تظهر... «قُدّر لَهُ.. ما كان ليكون.. فَتَحَ.. فَتْحاً...».. لم ينسَ ذلك الحلم: شيخ في التّسعين يلبس عمامة ويُمسك قلماً من القصب وأمامه دواة وورقة خُطّت عليها تلك الكلمات.. حاول «م» المرور بين السيّارات المُتلاحقة. كادَ يُداس، ارتفعت أصواتُ المُنبّهات والمكابح وانقضى المشهد بفرار الطّفل..

الشّارع طويل. الخميس منتصف النّهار.. هي بمعطفها الأسود وشفتيْها القرمزيّتيْن وعينيْها اللّيْليّتيْن الواسعَتيْن وجبينها الملائكيّ تمشي ومعها ذلك الطّفل بابتسامته المتخابثة وعينيْه الضّيقتيْن السّوداوين.. يُبادرها بالتّحيّة.. يسير معها إلى مدرسة آخر الشّارع الفرعيّ القريب من مقهى «الأحباب».. يختفي الطّفل في زحمة السّاحة.. يُمسك بيدها وتُمسك بيده.. يدعوها إلى كأس شاي في مكان مُريح.. لا تُمانع.. يهمّ باستدعائها إلى شقّته، ولكنْ تحصل المفاجأة: تُعْلمه بأنّها حامل في الشّهر الرّابع وتلبس معطفها على عجل والدّموع تبلّل وجنتيها وتدعه قطعةً باردة من المرمر..

كان المطر غزيراً والرّيح شتويّة عاصفة في مشهد رماديّ.. المقهى رَجْمٌ، والجنين قطعةٌ صغيرة من اللّحم الآدميّ حمراء في لون الدّم المُتجمّد، والزّجاج السّميك رداءٌ مشيمة، ودخانُ السّجائر شُعَيْرَاتٌ رقيقة بدأت تكسو الجمجمة، وهمسات الجالسين من العاشقين والعاشقات أنباضُ قلب في حجم حبّة القمح..

الشّارع طويل. الجمعة الثّالثة بعد الزّوال.. سماءٌ مُقْفِرَة رماديّة.. لا مطر.. المقاهي والمساجد وواجهات المتاجر وقاعات السّينما حزينة.. وجوه المارّة ظلال ميّتة..

تمضي السّاعات بطيئة إلى أن يعلو في السّماء أذانُ العشاء وصفير عاصفة رمليّة، ولا مطر..

الشّارع طويل. السّبت العاشرة مساءً. ليلة شتويّة باردة. يجلس «م» في حانة بأحد الفنادق الفاخرة. الموسيقى هادئة. ضوء أحمر خافت يُغَطّي الأشياء والوجوه.. على الطّاولة قوارير الجعَة ومرمدة وأعقاب سجائر.. كلّ الوجوه والأشياء ترتعش. الحيطان، الضّوء الأحمر الخافت، الدّيسكو، الأجساد، الوجوه الرّاقصة، العرق، القيثار. تموج الحانة بما فيها.. يتذكّر «م» صاحبَة المعطف الأسود.. يتمنّى لو يتحوّل المكان إلى سرير رحب وتختفي كلُّ الوجوه كي تُعَاد ملحمةُ العناق الحميم.. يضيق المكان وتنقلب الأصوات المُوَقّعة إلى جلبة.. يفيض حزنُ ذلك الخميس.. يودّ أن يراها. الجنين حُلْمُه الجديد.. يَلْمح بين التّيقّظ والإغماء طاولةً في أقصى الحانة يجلس حذوها طفلٌ، ذلك الطّفل بابتسامته المُتَخابثة وعينيْه السّوداويْن، وعلى يمينه صاحبةُ المعطف الأسود والعينيْنِ اللّيْليّتَيْنِ والشّفتيْنِ القرمزيّتيْنِ، وعلى يساره صاحبةُ البنطلون «الدّجينز» والوجه القبيح وبيدها صورةٌ شمسيّة مُضخّمة في إطار من الخشب المُنْمنَم خلف زجاج كأنّها للشّيخ محمّد الزّهروني..

تتسارع دقّاتُ قلبه في الجلبة وتكاد تكتسحه موجة نُعاس.. يرفع رأسه ويفتح عينيه في آخر محاولة تَيَقّظٍ.. يُبْصر وجهها الملائكيّ وابتسامةَ طفلة رضيعة ووقار شيخ في التّسعين. ثمّ يُعَاوِده ذلك الحلم: شيخ يلبس عمامة ويُمسك قَلَماً من القصب وأمامه دواة وورقة خُطّت عليها أسطر لم يتبيّن منها إلّا «قُدِّرَ له.. مَا كان ليكون.. فَتَحَ.. فَتْحاً..»

تونس